أحمد شوقي

ورده شعره على نفسيته (١)

ليس بنا من حاجة لان نستوحي آلهة الشعر وأن نقدم لها القرابين والتضحيات لتتدلى من سماء الاولمب الاعلى وتهبط الى حضيض هذا العالم تاركة جو ذلك الخيال الشعرى الى مادية هذه الدنيا المعكوسة الصور المنحوسة في المبتدإ والخبر، والتى لا يمكن أن يميز فيها بين المؤثر والاثر الا بكد الافهام والعقول، لتهمس في آذاننا همسة خافتة اذا ما أرادنا أن نستدر علمها بشاعريه شوقى قائلة فيه من رقة ابن هانىء ومن حكمة زهير ومن خلاعه ابى نواس اقدار متخالطة وحلقات متشابكة، فبأية من هذه الصفات رميت اصبت ناحية من نواحى شوقى، فاذا رميت بها جملة أصبته في مجموع كيانه.

ولاية حاجة نستوحى آلهة الشعر أو ان نجهد النفس في الاستعلاء في سماء ذلك الاولمب أو أن نبتهل ضارعين الى الآلهة ليهبطوا الى عالمنا الأرضى لنستجدى منهم العلم وشاعرنا شوقى من أعرق أهل هذه الدنيا بهاصلة، وأقربهم لها نسبا واشدهم بها لحمة؟ شاعر هو أكبر شعراء العالم العربى في هذا العصر. تفرد بامارة الشعر فهو أميرها غير المورث حتى الآن فى أمارته، وسيد دولة البيان الحاكم فيها بأمره، المنزه عن الشبائه ان يكون له فيها شبيه. غير أنه على الرغم من كل هذا شاعر أرضى الشاعرية دنيوى الخيال، لم ينزع الى المثاليات الا لحاجة يقضيها فى السياسة او مأرب يناله في الدولة. فمدح من غير حاجة به الى المدح واستجدى به من غير حاجة به الى الاستجداء. وأية شاعرية لم تفسدها السياسة؟ وأى خيال طمت عليه مآرب الدولات المتراوحة حظوظها بين هبات القدر ولم ينزل الى حضيض الشهوات؟ ومن ذا من الشعراء من عالج في شعره السياسة

---

(١) نشرت في السياسة الأسبوعية بعددها الخاص بتكريم شوقي بك

وسلم من سقطات الوهم ؟ ومن ذا منهم من أخذت بأطوافه مآرب الحكم وافلت من كبوات الهم والضجر .

على مقربة من شوقى وبين جنبات الشرق شاعر آخر، نبت فى تلك البلاد الفسيحة التى كانت عند ما غزاها الآريون لاول مرة في تاريخ الدنيا رحاب متسعة متراميـة الاطراف تكسوها غابات لم يلبث الغزاة ان انتفعوا بها وجنوا ثمراتها، فاتخذوا منها ملجأ يتقون به حرارة الشمس المحرقة وهجمات الرياح الاستوائية القاتلة ، كما وجدوا فيها مرتعا خصيبا لماشيتهم وناراً يوقدونها للتوسـل وتقديم التضحيات ، ومواد يبتنون بها القرى والاكواخ . لهذا كانت المدنية التى غرس بزورها الفاتحون وليدة تلك الغابات القديمة وبين جنباتها الرحيبة ابنعت وآتت اكلها . وفي صميم هذه البيئة وذلك الوسط الطبيعى تلونت المدنية بلون خاص وطبعت بطابع وحده . ولقد حوطت تلك المدنية بحيـاة الطبيعة الرحبة وتغذت بلبانها واتشحت بردائها ، فـكان لها بمختلف مظاهرها وتبـاين نواحيها اكبر علاقة وامتن آصرة. وفى هذه البيئة نشأ الشاعر السماوى، شاعر الوجدان والخلود ، شاعر الفناء في اللانهاية، شاعر النسك والزهادة، هنالك نشأ طاغور .

ولو انك حاولت ان تقارن بين الشاعرين أو أن تقف موقف الوساطة بينهما ، لاعوزتك الحيلة للتوفيق ، ولاعيتك الحيـل أن تجد بينهما وجها من المشابهة فى أية ناحية من نواحى شاعريتهما . وكيف يكون موقف من يريد التوفيق بين شـاعرية تفيض بوحى الآلهة ، وأخرى تفيض بوحى الملوك والامراء ؟ وكيف يستطاع التوسط بين خيال يستمد موحياته من اللانهاية ، وآخر يستمدها من نهايات كلها زائلة، بل كلها أحلام ؟ انما الفرق بين الحالتين ، كالفرق بين شعاع من نور وقبس من نار .

وبعد فهل انت تعرف طاغور؟ أما اذا كنت لا تعرفه، فاقرأ له وصف نفسه إذ يتمثلها فى ثوب ناسك جالس على باب كهف منعزل عن حياة المدنية فيقول: —

«ان تقسيم الليالى والايام وكذلك الشهور والاعوام ، لم يصبح من شأنى . لقد تعطل عندى مجرى الزمان الذى ترقص فوق امواجه الدنيا وكأنه الهشيم أو الاغصان اليابسة . في هذا الكهف (١) المظلم أعيش وحدى غارقا فى طيات نفسى. والليل الأبدى هادىء لا يتحرك كبحيرة في جبل تفرق من ذات أعماقها القصية . الماء (٢) تنضح به الصدوع (٣) ومنها يتساقط . وفى ماء البركة الراكد (٤) تسبح الضفادع القديمة (٥) انى اجلس أرتل تعويذة اللاشىء. ان اطراف الدنيا تنكمش أمامى خطاً وراء خط . والنجوم المنحوتة من قطع الزمان المضيئة كقباس النار تنقرض وتفنى »

«أما الافتتان فلى. ذلك الذى يزودنى به الآله شيفا، اذ يستيقظ بعد فترات يقضيها فى الاحلام ليجد نفسه وحيدا منفرداً في فناء اللانهاية ».

«أنا حر: أنا الواحد العظيم المنفرد بذاتى»

«عند ما كنت لك عبدا أيتها الطبيعة أثرت بعض اجزائى قلبى ضد بعض و بعثتها في حرب دموية انتحارا فى سبيل الدنيا. وسلطت على الشهوات التى ليس لها من غاية الا أن يأكل بعضها بعضا وانها تلتقم كل ما يسعه فمها، فامضتنى ألما وفرقا. لقد عدوت تأبها مجنونا اتبع ظلى ! لقد قذفتنى بما بعثت على من وميض لذائذك الخلب الى خلاء الشهوات . أما ميولى القاسرة وهي حبائلك واشراكك فقد أسلمت بى الى قحط بغير نهاية ، حيث استحال الغذاء ترابا والماء بخارا»

«حتى اذا ماصبغت الدموع دنياى وأصبحت عندى رمادا ، أقسمت قسمى لانتقمن منك ولاصبن عليك غضبى. أنت يا جماع الظواهر الكاذبة المسئمة، يا مبعث الخداع الدائم . لقد احتميت بالظلام سكن اللانهاية . وحاربت أشعة الضوء (٧)

---

(١) أى نفسه (٢) الشهوات (٣) الميول (٤) طيات نفسه
(٥) الاحقاد الدنيوية
(٧) مولدات الشهوة

الخداعة يوما بعد يوم ، حتى أفقدتها سلاحها ، وتركتها هامدة خائرة القوى تحت قدمى»

« والآن بعد ان تحررت من المخاوف والشهوات، و بعد ان انكشف عن بصرى الضباب ، و بعد ان اشعت قوى عقلى بريئة وضاءة ، فلاخرجن الى عالم الكذب والبهتان مرة ثانية، ولاجلسن على ذات قابه، غير ملموس ولا بمزحزح عن مكانى .»

هذا هو طاغور . أما شوقى فلا اظن أنه يغيب عن ذهنك . قوله .

صونى جمالك عنا اننا بشر
من التراب وهذا الحسن روحانى

وهل يغيب عنك وصفه لحادثة فى ليلة ساهرة كانت بطلتها غادة ذات مقام رفيع اذ يقول

تقول لاترابها مومئة بالغنم
من ذلك الفتى العربى العلم
يبيت ليلته ساكرا لم ينم
قلن تجاهلته؟ ذلك رب القلم
شاعر مصر الذى اذا خفى النجم لم

فهل يمكننا بعد هذا ان نتورط في وساطة بين شاعرين عقد لاحدهما لواء الزعامة في عالم التوحيد، وللآخر لواء الزعامة فى عالم الوثنية ؟ نرى بأنفسنا أن نضعها في هذا الموضع وأن نسومها طلب المحال فتطمع فى غير مطمع .

أما المفاضلة فلا نتلكأ فيها . نعقد لشوقى لواء الامارة في العالم العربى ، ونرفع لطاغور لواء الزعامة على كل البقاع التى تكسوها الشمس من كرتنا الارضية . وكفى الشرق فخرا أن تكون له في بداية القرن العشرين دولة الشعر ، يقودها في العالم العربى شوقى وفي العالم كله طاغور .

قد يعز على الكثيرين من النقاد أن لانجعل شوقى أنبغ من هوميروس في الوصف وأمتع من دانتى فى الرواية وأعرف من شكسبير بحقائق الحياة الانسانية وأمتن من ملن في اللغة وأعرق من جوتة صلة بالفلسفة . بل قد يعز عليهم أن لانضع شوقى في صف وحده أو أن لانفرسه على قمة هرم نجعل لبناته شعراء الدنيا كلها . ولقد أصبح هذا الزعم عند البعض ايمانا ومعتقدا ثابتا . ولست أدرى لماذا ؟! ألأن شوقى نسج على منوال القدماء فحاذاهم ولم ينزع الى غير مانزعوا اليه من الطرائق ؟ أم لانه أحيا موات الاساليب القديمة ثم مزجها بقليل من مميزات العصور الحديثة فخرجت أشعاره مزيجا من القديم والحديث ، وخليطا من سليقة البداوة وطراوة الحضارة، قد تجدلها أمثالا كثيرة في شعراء الدولة العباسية وعلى الاخص من خالط منهم الامراء والمترفين ؟ اللهم انا لانستطيع أن نجارى المغالين من مغالاتهم ولا ان نفرط مع المفرطين في المدح فنخرج من شوقى صورة غير موجودة، ونتكلم فى شخصية لاحقيقة لها في الخارج .

يقولون ان شوقى قد افرغ الشعر في قالب جديد . ويقولون انه مجدد في الاساليب تجديده في القوالب الشعرية . ولو ان القائلين بالحقيقة الاولى لم يشوهوها بالزعم الثانى لكان في قولهم كثير من الحق والصواب. على انه حق ينطبق على كل شاعر من شعراء العصور القديمة والحديثة . فلكل شاعر نزعة تفرغ الشعر فى قالب ما . وهذه النزعة راجعة الى الاستعداد الفطرى الذى يكون من الشاعر شاعرا ومن الكاتب كاتباً ومن العالم عالما. واذا كان من المتعذر ان تماثل النزعات والميول الفطرية ، استتبع هذا ان يكون لكل شاعر من الشعراء قدرة خاصة على افراغ الشعر فى قالب قد يقال انه جديد . وشوقى لم يعد هذه القاعدة

أما التجديد فى الاساليب فزعم لم يستطيع أحد من النقاد اثباته لشوقى حتى الآن . وليس أدل على هذا من أن أفخم قصائده وهي الاندلسية ونهج البردة وقصيدة كارنارفون قد نسج فيها على قصائد قديمة، نالت فى الادب القديم مكانة

جعلت لقصائد شوقى وقعا في النفوس جديدا، وحلاوة ثمازجت فيها الذكريات. فمن حنين الى عظمة القديم. مصبوبة فى قالب لاتخرجه الا شاعرية شوقى وحده، الى شغف فى الايقاع على أوتار الحديث على صورة مايصل اليها الامن هام برقة ابن هانىء واستوقفته روعة زهير.

لقد أجدبت اللغة العربية جدباً نسبيا فى ذلك العصر الذى تقدم عصر النهضة الحديثة التى ندعوها غالبا بنهضة محمد على. فان عصر المماليك لم يكن ذلك العصر الادبى الذى يصح أن يقال فيه ان اللغة أو الصناعات الادبية قد كسبت فيه جديدا مبتكرا، على الرغم من كثرة المؤلفات التى ظهرت خلال ذلك العهد المظلم. فانها مؤلفات غالب ماعنيت بالفقه وكثر ما أكبت على تدوين التراجم. فان كتاب صبح الاعشى وكتاب مسالك الابصار وقاموس لسان العرب وهى من مفاخر ذلك العصر، لايمكن أن تعد كتب تجديد بالمعنى الصحيح، على الرغم من قيمتها الادبية كمراجع أو معاجم عظمى. وفي حدسى أن قيمة هذه الكتب وأمثالها مما خرج فى عصر المماليك لاتزيد قيمته الآن عن موسوعات إرش وجروبر العظمى أو معلمة لينيوس فى التاريخ الطبيعى، وقيمتها في اللغة العربية كقيمة الموسوعة فى الألمانية، أو المعلمة فى اللاتينية. إذن فعصر المماليك كان عصر انتاج، ولكنه لم يكن عصر تجديد أبداً.

على أنى أخشى أن يكون حكمى على الحركة الأدبية فى عصر النهضة العلوية شبيها بحكمى عليها فى عصر المماليك من حيث الشعر. فانه كان ولاشبهة عصر انتاج، ولكنه ليس بعصر تجديد، إذا أردنا أن ننظر في النهضة من ناحية الشعر وحده، واغضينا الطرف عن حركة التجديد التى قامت حول الترجمة في ذلك العصر، وهي حركة نعتقد انها من أثمن ما أخرج محمد على من الآثار العظمى، كان لناحكم قد يراه البعض قاسيا، والبعض معتدلا. ففى طوال القرن الماضى لم يظهر في مصر سوى شعراء أربعة البارودى وصبرى وشوقى وحافظ. قد يمكن أن نعتبر

بحق انهم الذين يمثلون دولة الشعر فيه . وهم فى مجموعهم صور مختلفة ونماذج متباينة من شعراء العصور القديمة . وأكثر ما فيهم من الصفات آثار مستمدة فى غالب الأمر من شعراء العصر العباسى . لهذا كان ظهور شوقي في هـذا العصر حادثاً جـديدا لا باعتبار الآثار الابتكارية الخالدة التى بثها في تضاعيف الشـعر العربى ، بل باعتبار انه اخصب اخصاباً كبيرا بعد عصر طويل كادت تجدب فيه ملكة الشعر في العالم العربى وفى مصر على الاخص

على أن اخصاب شوقى له نواحيه المتعدده . غير أن أظهر تلك النواحى وأبين مافيها من الآثار قدرته الكاملة على الوصف . فهو وصاف ماهر ومصور يبز الكثيرين من أهل صناعته قديما وحديثا . ففى الشعراء المعاصرين من يبزه فى المديح . وليس بقليل منهم من شبب بما لم يبلغ اليه شوقى . ولكن ليس منهم من يستطيع ان يجاريه في مضمار الوصف والتصوير .

* * *

كنا نود أن لايجرى القلم سريعاً وكنا نود أن نبحث شوقى فى هوادة وتؤدة وان نبحث على الاخص مايدعيه له الكثير من النقاد اذ يقولون انه مبتكر في المعانى والاساليب . والحقيقة أنه لم يبتكر شيئاً جديدا ولم يغن دولة الشعر العربى بطريقه جديدة تضع بين قدماء والمحدثين فاصلا كما فعل هوغو فى الشعر الفرنسو أو بيرون وتنيسون في الشعر الانجليزى ، في حين أنه أقدر شعراء هذا العصر على مثل هذا الابتكار . فان المامه باللغة الفرنسوية وبآداب الفرنسويين كبير حتى اننا نعجب كيف ان قليلا من المعانى التى نظن انها من ابتكاراته كقوله فى توت عنخ آمون وهو يخاطب الشمس :

تعينين الموالد والمنايا وتبنين الحياة وتهدمينا

انها مستمدة من الشعر الانجليزى ومن خيال شيلى الشاعر المعروف

على أن الامر لا يقف عند هذا الحد ، بل يتعداه الى نقص آخر قد نراه أنكى من النقص الاول . فان أكثر قصائد شوقي المشهورة بين الناس عبارة عن أبيات لا يجمع بينها من شيء الا أن شوقي نظمها . فالقصيدة عند شوقي عبارة عن حلقات منفصلة غير متصلة ، وليست كلا واحدا متلائم النواحي مترابط الاجزاء . وفي استطاعة كل أديب أن يرتب أكثر قصائده ترتيبا جديدا بحيث يمكنك بعده أن تقرأ القصيدة عكسا وطردا من غير أن يلتبس عليك معنى واحد من المعاني التي رمى اليها الشاعر ، ومن غير أن يستبهم عليك انها من صناعة شوقي بل ومن روحه . فالفكرة عند شوقي غير متصلة ، بل ان شئت قلت ان في كل بيت من أبياته فكرة وفي كل منها معنى . غير أن أعجب العجب ان هذه الفكرات وتلك المعاني في مجموعها لا تكون كلا متلائم النواحي متصل الاجزاء . ولست أدري بأي شيء نسمي هذه الظاهرة : اهي نبوغ وعبقرية أم لازمة من لوازمه ، ان لم تكن ضرورية لرفعه فوق مستوى الشعراء ، فلا أقل من أن نعتبرها من خاصياته الغريبه

واغرب ما في شوقي ضعف الكثير من مطالع قصائده . وانت اذا أردت ان تحلل مطالع الكثير من نظمه ما استطعت ان تمضي في حكمك عليه كنابغة الشعراء في هذا العصر من غير ان يستوقف نظرك مطالع آية أخرى في الروعة والجلال . على ان الفارق بين مايروعك جماله و بين ما يروعك قبحه كبير . لهذا نمضي في هذه المقارنة قليلا لنظهر هذه الصفة أظهاراً جلياً

قارن مثلا بين قوله .

قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

وقس ما في هذا المطلع من روعة على قوله .

أبالهول طال عليك العصر و بلغت في الارض قضى العمر
فيالدة الدهر لا الدهر شب ولا أنت جاوزت حد الصغر

فان ضعف المطلع هنا لايقاس بجانب مافي هذين البيتين من تناقض غريب لا سبب فيه الا العجز عن مسايرة مقتضى الحال . فكيف أن ابا الهول قد بلغ في الارض أقصى العمر ، وكيف انه لم يتجاوز بعد حد الصغر ؟

ثم اذكر قوله .

قم ناد أنقرة وقل يهنيك ملك بنيت على سيوف بنيك

بجانب قوله . الله أعلم والقبور النفس تخلد أم تبور

وانظر كيف أنه نسب العلم الى القبور . بل كيف جعل علم القبور مساويا لعلم الله بخلود الانفس أو بوارها ؟

أو قارن قوله .

صداح يامالك الكنار و ياأمير البلبل

قد فزت منك بمعبد ورزقت قرب الموصلي

بقوله . ياناشر العلم بهذى البلاد وقفت ، نشر العلم مثل الجهاد

أو قوله

ريم على القاع بين البان والعلم أفتى بسفك دمى فى الاشهر الحرم

بقوله . سل يلدزا ذات القصور هل جاءها علم البدور

أو قوله .

يارا كب الريح حيي النيل والهرما وعظم السفح من سيناء والحرما

بقوله . الدهر جاءك باسط الاعذار فاقبل فأمر الدهر للاقدار

أو قوله .

الله أكبركم في الفتح من عجب ياخالد الترك جدد خالد العرب

بقوله .

يابارك الله فى عباس من ملك وبارك الله في عمات عباس

أو قوله .

في الموت ما أعيا وفي أسبابه كل امرىء رهن بطى كتابه

بقوله .

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف

على أنك لاتستطيع أن تمضي في هذه المقارنة بعيداً من غير أن تجد أن عدد مطالعه الضعيفة قد أربى كثيراً على عدد مايستهويك جماله وتستوقفك روعته.

على أن لدينا هنة أخرى لايجب أن نغض الطرف عنها أو أن نسدل عليها من التفريط ستراً . فالحق أن قليلا من قصائد شوقى مايتسق فيها النفس اتساقاً كاملا .وليس لهذه الظاهرة فى شعر شوقى من سبب الا تموج المعانى فى مخيلته تموج الاثير في الفضاء ، وعدم استقرار مشاعره على صورة واحدة زمناً طويلا . لهذا تجد أن المعنى قد يتسق و يقوى فى موضع ثم لاتلبث أن تجد ذلك البناء وقد انهار فأصبح حضيضاً .فلو أن مشاعر نابغتنا كانت قد أعطيت من قوة الاستمرار مايتساوى مع قوة اللغة والقدرة على صبها فى تلك القوالب الغريبة ، لاخرج لنا شوقى في هذا العصر خير ماخرج من الشعر العربى في كل العصور .

ومن أجل هذا تجد أن لشوقى مقطوعات قصيرة تتخلل قصائده لايشق له فيها غبار ، أسلوبا ومعنى . وعندى أن هذه أخص مميزاته . وانى أفضل مقطوعاته هذه على قصائده برمتها من غيره ، وان اتصل فيها النفس وروعى الاتساق أشد مراعاة .

يدلك هذا على أن بين جنبى شوقى روحاً ثائرة ونفساً متأججة . ولكنها ثورة أشبه بثورة الرياح إذ تهب فتية هوجاء ، ثم لاتلبث أن تمر عليلة ناعمة ، أو نار الهشيم إذ تتأجج مندلعة الالسن في لحظة ، وتصبح رماداً فى أخرى . والصناعة بين يدى شوقى انما تخضع لجماع هذه الصفات الفطرية الطبيعية . فحيث تشتد ثورة نفسه تسمو معانيه وتقوى شاعريته . فاذا خبت نارها هبطت المعانى والشاعرية معا الى منزلة لم ينزل اليها الكثيرون من شعراء هذا العصر . وحيث

تتأجج نفسه بحادث يمس مشاعره تلمس النار سارية بين أبياته بل بين كلماته ، فاذا هدأت العاصفة ونامت ، طوى عليها وعلى الشعر سترا من ميوعة الفطرة ولين الطبع ، ينزل بشعره الى المستوى الذى لايحسد عليه الكثيرون من أهل صناعته.

اليك مثلا واحدا تقيس عليه في كثير من قصائد شوقى . بل انظر كيف يكون تأجج العاطفة تفيض بالسحر إذ هى مندلعة الالسن بنيران الامل الوثاب الى الغايات والمثل ، ثم انظر كيف تنطفىء شعلتها فتموت ويموت معها الشعر .

قال في مطلع قصيدة مشروع ملنر.

أأن عنان القلب واسلم به ... من ربرب الامل ومن سر به
ومن تثنى الغيد عن بانه ... مرتجة الارداف عن كثبه
ظباؤه المنكسرات الظبا ... يغلبن ذا اللب على لبه
بيض رقاق الحسن في لمحة ... من ناعم الدر ومن رطبه
ذوابل النرجس من أصله ... يوانع الورد على قضبه
زن على الارض سماء الدجي ... وزدن فى الحسن على شهبه
يمشين أسرابا على هينة ... مشى القطا الآمن فى سربه
من كل وسنان بغير الكرى ... تنبئه الآجال من هدبه
جفن تلقى ملكا بابل ... غرائب السحر على غربه

على هذا يكون شعر شوقى اذ تلتهب نفسه بالعاطفة ، فاذا ما انطفأت ولما ينته من نظم قصيدته ، ينزل من هذه السماء العليا الى قوله .

أمر عليكم أو لكم في غد ... ماساء أو ماسر من غضبه
لاتستقلوه فما دهركم ... بحاتم جود ولا كعبه
نسمع الحق ولم نطلع ... على قنا الحق ولا قضبه
ينال باللين الفتى بعض ما ... يعجز بالشدة عن غصبه
فان أنستم فليكن أنسكم ... في الصبر للدهر وفي عتبه

إلى قوله .

يارب قيد لاتحبونه زمانكم لم يتقيد به
ومطلب في الظن مستبعد كالصبح للناظر فى قربه
اليأس لايحمل من مؤمن مادام هذا الغيب فى حجبه

*
* *

شوقى شاعر كثير الالوان متعدد الصور ، فله في القومية جولات نكبرها ، وفى الدين خطرات يقف الاديب عندها وقفة طويلة . وله فى الخلاعة مرقصات كاد يبز فيها أبا نواس ، شاعر الخمريات فى عصر العباسيين . وله في غير هذه المواقف أشياء لا نعرض لشيء منها الآن حرصا منا على فراغ هذه الصحيفة أن نملأ منه أكثر مما نستحق في هذا الموطن . على أنى لست من الذين يقولون إن لشوقى شخصياته المتعددة . فهل هو فى قومياته أبين أثرا منه في خمرياته ؟ وهل هو في دينياته أبرز شخصية منه فى الوصف ؟ أما اذا كانت الطبيعة قد خصت شوقى بشيء من هذا فانها قد خصته بالقدرة على النواح على المجد الزائل من المدنية الشرقية بعد أن اندك قائمها وغاصت فى ثرى الزمان قوائمها . فانه إن بكى مجد المصريين ، أو ناح على مدنية العباسيين ، أو رثى دمشق الشام أو طليطلة الاندلس ، فانه انما يبكي الشرق ممثلا فيما كان له من مجد زال ، ومدنية جاءت عليها الازمان فدالت ودرست آثارها . فهو شاعر الشرق الباكى عليه النائح على مجده القديم في أى لون تكون ذلك الشرق وفى أية ناحية كان ، وبأية صبغة اصطبغ .

والحق أن لشوقى فى ذلك مواقف كانت قدرته الفطرية على الوصف أكبر عون له على تصوير مشاعره فيها تصويرا كاد يخرج به عن تلك الدائرة التى لم تتسع الا لغير ما خلق له شوقى . دائرة السياسة مصروفة الى تلك الفكرة القديمة فكرة الجلاد بين الشرق والغرب ، لا ليكونا متكافئين ، بل ليسود أحدهما على

الآخر ، ولتكون السيادة فى الدنيا للاول دون الثانى .

ولم يكن لشوقى من بد وهو مغمور فى بحر السياسة الاعجمى منذ نظم الشعر وهو فى صباه ، من أن يشيد بذكر الخلافة ، وأن يشبب بالاستقلال . تلك أشياء كان مقسورا على أن يجعلها المحور الذى تدور من حوله أشعاره . وهو في هذا إلى ناحية الدعاية السياسية أدنى منه إلى وصف المشاعر التى كانت تنطوى عليها نفسه . وما ظنك بشاعر يشب فى بيت محمد على وتحت كنفه وهذا البيت تابع لدولة الخلافة ؟ لم يكن له من بد أن يشيد بذكر الخلافة وأن ينصرها على أوروبا كلها ، حتى اذا هدم ركنها وزالت دولتها أصبحت وأحلام الشاعر القديمة فى غلاف واحد من النسيان مطوية مع ذكريات الماضى ، لا تستحق رثاء ولا نواحا . وما ظنك بشاعر يشب فى كنف عباس الثانى فيجد أميره فى صراع دائم مع المحتلين لبلاده وعلى رأسهم سياسى شديد المراس يقود الحكومة ، وآخر جندى عنيد يقود الجيش ؟ لم يكن له من بد أن يتغنى بالاستقلال والجلاء ، خدمة لاغراض السياسة لا خدمة للشعر ولا ارضاء للشاعرية .

انما أرضى شوقى شاعريته فى تشبيه بالشرق والشرقيين ، وهو فى هذه الناحية أصح نزعة منه فى كل منازعه الاخرى . فهو بحق شاعر الشرق العربى لغة ، وشاعر الشرق كله عاطفة ووجدانا .

اما اذا اردنا أن نستطرد فى بحث شوقى بحثا يرضى نزعة العصر الحديث فى النقد فانا ولا شك ننبو عما قصدت اليه السياسة الاسبوعية من هذه الابحاث . لهذا نجمل القول وجملته أننا ارضينا فى هذه الاسطر نزعة العصر الجديد . ولعلنا نكون قد ارضينا شاعرنا الكبير بأن صورناه كما نراه صورة حقة لا خيالا بعيدا عن الحقيقة التى نقدسها ويقدسها هو من قبلنا والسلام .